

(من كتاب الحج وروح العبادة فيه)

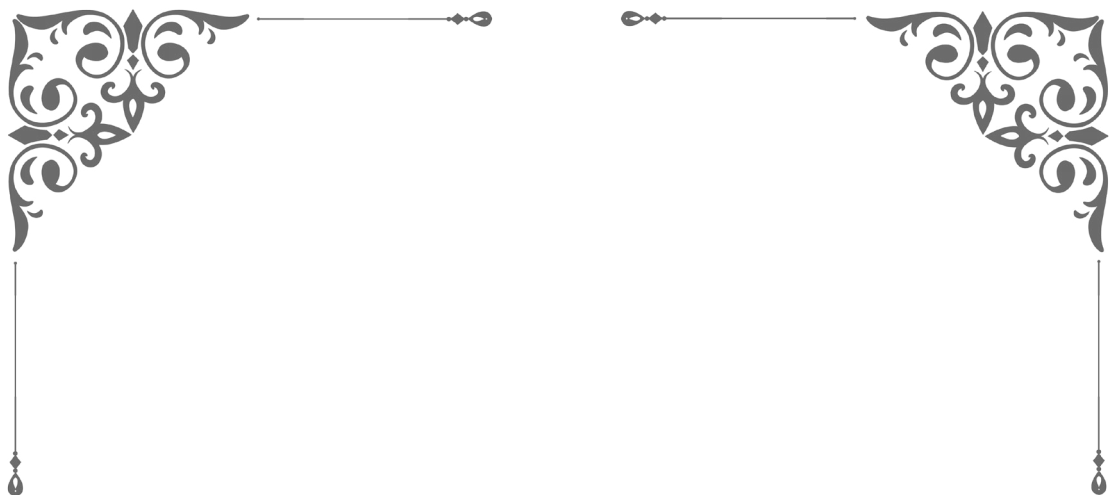
(١٠)

السعي واستشعار معانيه

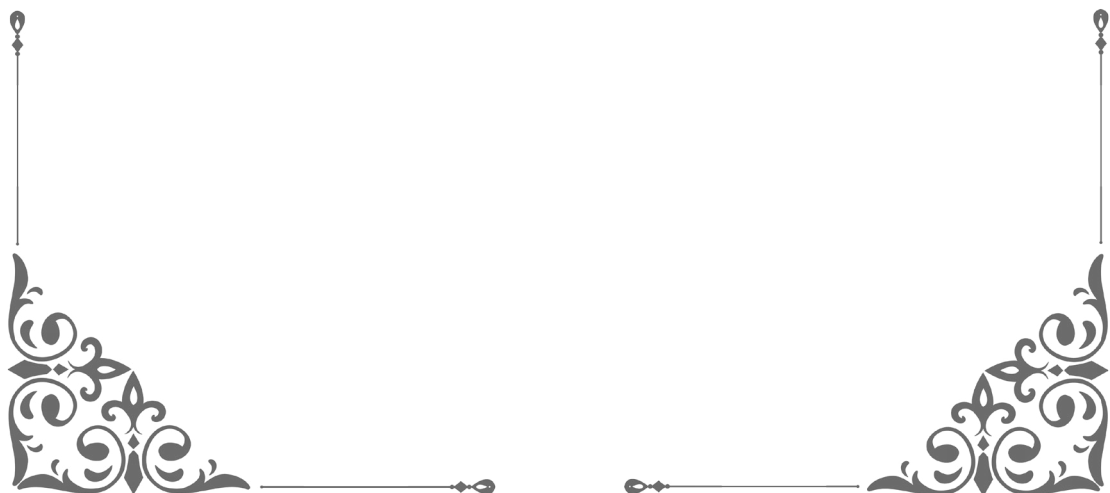


تأليف

عادل بن عبد العزيز الجهني



محفوظ جميع الحقوق





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ومن عبادات الحجِّ العظيمة السعي بين الصفا والمروة، فقد

أمر الله به في كتابه بقوله: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ (١٥٨) (١).

وجاء الأمر به في سنة نبيه عليه الصلاة والسلام بقوله وفعله، قالت

عائشة رضي الله عنها: (ثُمَّ قَدْ سَنَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الطَّوَّافَ بِهِمَا - أي بين الصفا والمروة - فَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَدَعَ الطَّوَّافَ بِهِمَا) (٢).

وعند مسلم قالت رضي الله عنها: (طاف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وطاف المسلمون، فكانت سنة) (٣).

(١) [سورة البقرة: الآية ١٥٨]

(٢) أخرجه في الصحيحين.

(٣) رواه مسلم.



ومرادها بالطواف هو السعي كما ذكر أهل العلم؛ لأنَّ الطواف بالكعبة ركن متفقٌ عليه، ويؤيده الحديث الذي يليه، والمقصود بقولها: (فكانت سنةً) أي: سنةٌ واجبة.

وعن حبيبة بنت أبي تجرة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: (رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَطُوفُ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَالنَّاسُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُوَ وَرَاءَهُمْ، وَهُوَ يَسْعَى حَتَّى أَرَى رُكْبَتَيْهِ مِنْ شِدَّةِ السَّعْيِ يَدُورُ بِهِ إِزَارُهُ، وَهُوَ يَقُولُ: "اسْعُوا، فَإِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَيْكُمُ السَّعْيَ")^(١).

والسعيُّ عبادة تظهر فيها العبودية الحقَّة للعبد المؤمن، والاستجابة الكاملة لربه، ومن فضائله ما جاء في حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وفيه قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "... وَأَمَّا طَوَافُكَ بِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ؛ كَعِتْقِ سَبْعِينَ رَقَبَةً" - أي: في الفضل والأجر -^(٢).

فانظر لهذا الفضل الكبير الذي جعله الله لمن سعى، واستحضره، واحتسبه عند الله، وأحمده عليه.

(١) رواه أحمد وابن خزيمة، وصحَّحه الألباني في صحيح ابن خزيمة.

(٢) رواه الطبراني، والبيزار، واللفظ له، وهو حديثٌ حسن.



وأصل مشروعية السَّعي هو سعي هاجرَ عَلَيْهَا السَّلَامُ عندما تَرَكَهَا إبراهيمٌ مع ابْنَيْهِمَا إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بِمَكَّةَ، وَنَفَدَ مَا مَعَهَا مِنْ طَعَامٍ وَشَرَابٍ، وَبَدَأَتْ تَشْعُرُ هِيَ وَابْنُهَا بِالْعَطَشِ؛ فَسَعَتْ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ سَبْعَ مَرَّاتٍ طَلَبًا لِلْمَاءِ؛ يَقُولُ ابْنُ عَبَّاسٍ: (وَجَعَلْتُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ تُرْضِعُ إِسْمَاعِيلَ وَتَشْرَبُ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ، حَتَّى إِذَا نَفَدَ مَا فِي السَّقَاءِ عَطِشَتْ وَعَطِشَ ابْنُهَا، وَجَعَلْتُ تَنْظُرُ إِلَيْهِ يَتَلَوَّى أَوْ قَالَ: يَتَلَبَّطُ، فَانْطَلَقَتْ كَرَاهِيَةً أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَوَجَدَتْ الصَّفَا أَقْرَبَ جَبَلٍ فِي الْأَرْضِ يَلِيهَا، فَقَامَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَتْ الْوَادِيَّ تَنْظُرُ: هَلْ تَرَى أَحَدًا، فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَهَبَّطَتْ مِنَ الصَّفَا حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ الْوَادِيَّ، رَفَعَتْ طَرْفَ دِرْعِهَا، ثُمَّ سَعَتْ سَعْيَ الْإِنْسَانِ الْمَجْهُودِ، حَتَّى إِذَا جَاوَزَتْ الْوَادِيَّ، ثُمَّ أَتَتْ الْمَرْوَةَ، فَقَامَتْ عَلَيْهَا، وَنَظَرَتْ هَلْ تَرَى أَحَدًا، فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَفَعَلْتُ ذَلِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "فَذَلِكَ سَعْيُ النَّاسِ بَيْنَهُمَا"^(١).

ففي هذا المكان قامت تسعى وتطلب ضارعة إلى الله تعالى أن يهديها إلى ماء تروي به ظمأها وظمأ ابنها، فانفجرت الأرض

(١) رواه البخاري.



عن بئر زمزم، قال ابن كثير في تفسيره: (فَلَمْ تَزَلْ تَرَدُّدِي فِي هَذِهِ الْبُقْعَةِ الْمُشْرِفَةِ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ مُتَذَلِّلَةً خَائِفَةً وَجَلَّةً مُضْطَّرَّةً فَقِيرَةً إِلَى اللَّهِ، عَزَّجَلَّ، حَتَّى كَشَفَ اللَّهُ كُرْبَتَهَا، وَأَنَسَ غُرْبَتَهَا، وَفَرَّجَ شِدَّتَهَا، وَأَنْبَعَ لَهَا زَمْزَمَ التِّي مَأْوَاهَا طَعَامٌ طَعْمٌ، وَشِفَاءٌ سُقْمٌ).

وها هو ماء زمزم الذي أطعمه الله الملايين من الناس؛ حيث يستقي منه حجاج بيت الله الحرام من آلاف السنين إلى يومنا هذا.

والسعي بين الصفا والمروة ليس مجرد مشي بين جبلين، وذهاب ومجيء من دون حكمة وغاية، بل هو اتباع لسُنن المرسلين، ومنسك من مناسك الحج والعمرة، به يتم الحج والعمرة، ومعه يتحقق الاستسلام لله والاستجابة لأمره.

وفيه استشعار العبد بأن حاجته إلى خالقه ورازقه كحاجة تلك المرأة في ذلك الوقت، وتوجهه لربه كتوجهها له في كشف كُرْبِهِ، ويتذكّر به الساعي أنّ من يطيع الله فإنّه لا يضيّعه، ولا يخيّب سعيه، كما لم يضيّع سعي هذه المرأة الصالحة وابنها **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ**، وأن ينقذه من شدائد العوز والاحتياج، وأن يرحمه برحمته الواسعة كما رحم هاجر وابنها بماء زمزم.



وفيه يستحضر العبد فقره إلى ربه، وحاجته لمولاه في كل شؤونه، قال ابن كثير في تفسيره: (فَالسَّاعِي بَيْنَهُمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَسْتَحْضِرَ فَقْرَهُ وَذُلَّهُ وَحَاجَتَهُ إِلَى اللَّهِ فِي هِدَايَةِ قَلْبِهِ وَصَلَاحِ حَالِهِ وَغُفْرَانِ ذَنْبِهِ، وَأَنْ يَلْتَجِيَ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِيُزِيحَ مَا هُوَ بِهِ مِنَ النَّقَائِصِ وَالْعُيُوبِ، وَأَنْ يَهْدِيَهُ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَأَنْ يُثَبِّتَهُ عَلَيْهِ إِلَى مَمَاتِهِ، وَأَنْ يُحَوِّلَهُ مِنْ حَالِهِ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي، إِلَى حَالِ الْكَمَالِ وَالْغُفْرَانِ وَالسَّدَادِ وَالِاسْتِقَامَةِ، كَمَا فَعَلَ بِهَا جَرَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ) (١).

وهذه معانٍ جلييلة ينبغي أن يستحضرها الساعي بين الصفا والمرورة، فإظهار الفقر لله من أنفع الأمور للعبد، فيسعى وهو مضطر لرحمة الله وهدايته، وحاجته لصلاح قلبه، وغفران ذنوبه، وتكميل حاله، فمن فعل ذلك تجده خاشعاً، حاضر القلب في سعيه، يؤديه وقد اجتمع عليه قلبه، وأخلص لله في الدعاء، وأظهر الفاقة لمولاه، فقل بربك كيف سيخرج الساعي من سعيه وهو مستحضر هذه المعاني أثناء سعيه؟!

(١) [تفسير ابن كثير، سورة الحج]



واستحضر بالمقابل حال من غفل عنها، ويسعى وكأنه يمشي بلا غاية من هذا السعي؛ لتوقن بأهمية حضور القلب في هذه المناسك، وأثره على الحاج والمعتمر.

وكلما كان قلب الساعي حاضرًا فيه، فإنه يؤديه على أكمل وجه، ويجد اللذة لهذه العبادة، ويخرج منها بقلب الخاشع الذليل لربه، ويقوى هذا مع لزوم الذكر في السعي، وشغل النفس به، وترك الانشغال بالخلق، وكذلك طول الدعاء وكثرته وتنوعه، وإظهار الفاقة للرب الكريم، وكم سمعنا عن أناس صالحين يقف أحدهم وقوفًا طويلًا على الصفا والمروة، داعيًا مناجيًا لربه، لعلمهم أن هذه المواطن من مواطن إجابة الدعاء، وأنها عبادات لها أثرها في قلب العبد الناسك.

ومما ينبغي للساعي أن يستشعره عند سعيه أنه ممثّل لأمر الله الذي أمره بذلك، فمن استشعر ذلك وجد حلاوة العبادة، يقول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: (وقوله: "فلما دنا من الصفا" يعني قرب منه، قرأ: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾^(١) "أبدأ بما بدأ

(١) [سورة البقرة: الآية ١٥٨]



الله به " وفائدة هذه القراءة إشعار نفسه بأنه إنما اتجه إلى السعي امتثالاً لما أرشد الله إليه في قوله: ﴿إِنَّ الصَّفاَ وَالْمُرَّةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾^(١) وليعلم الناس أنهم إنما يسعون بين الصفا والمروة من أجل أنهما من شعائر الله، وليعلم الناس أيضاً أنه ينبغي للإنسان إذا فعل عبادة أن يشعر نفسه أنه يفعلها طاعة لله عزَّ وجلَّ كما لو توضع الإنسان، فينبغي أن يستشعر عند وضوئه أن يتوضأ امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾^(١) ويشعر أيضاً أنه يتوضأ كأن النبي صلى الله عليه وسلم أمامه يتبعه في وضوئه، وهكذا جميع العبادات فإذا استشعر الإنسان عند فعل العبادة أنه يفعلها امتثالاً لأمر الله فإنه يجد لها لذة وأثراً طيباً^(٢).

أما صفة السعي الثابتة، فإنه يتبدى بالصفا و[يُشرع له إذا دنا من الصفا أن يقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفاَ وَالْمُرَّةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾^(٣). ويقول: (أبدأ بما بدأ الله به)، ويقتصر في قوله هذا على الصفا في المرة الأولى فقط، ويرتقي على الصفا حتى يرى الكعبة

(١) [سورة المائدة: آية ٦]

(٢) شرح حديث جابر في صفة حجة النبي صلى الله عليه وسلم ص ٣٥.

(٣) [سورة البقرة: الآية ١٥٨]



ويستقبلها، ويكبر ثلاثاً: اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، ويقول: لا إلهَ إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شريكَ له، له المُلْكُ وله الحَمْدُ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، لا إلهَ إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ، أَنْجَزَ وَعَدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ. ثم يدعو بما تيسر، رافعاً يديه، ويكرّر ذلك (ثلاث مرّاتٍ)، ويقول ويفعل على المروّة كما قال وفعل على الصّفا، في الأشواط السبعة، ما عدا قراءة الآية، وقوله: (أبدأ بما بدأ اللهُ به) ويكثر من الدعاء والذكر في سعيه، ومن ذلك: ربِّ اغفر وارحم؛ إنك أنت الأعزُّ الأكرم^(١).

قال الألباني: (وإن دعا في السعي بقوله: ربِّ اغفر وارحم؛ إنك أنت الأعزُّ الأكرم، فلا بأس؛ لثبوته عن جمع من السلف، وذكر منهم ابن مسعود وابن عمر والمسيب بن رافع الكاهلي وعروة بن الزبير)^(٢).

والمشي في السعي أفضل، فعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: "إنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَثَرَ عَلَيْهِ النَّاسُ يَقُولُونَ: هَذَا مُحَمَّدٌ،

(١) [الموسوعة الفقهية، موقع الدرر السنية]

(٢) [مناسك الحج والعمرة: ٢٧].



السعي واستشعار معانيه



هذا محمَّدٌ. حتى خرج العواتقُ مِنَ البيوت، وكان رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يُضْرَبُ النَّاسُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَلَمَّا كَثُرَ عَلَيْهِ رَكْبٌ، وَالْمَشْيُ وَالسَّعْيُ أَفْضَلُ" (١).

ويستحب لمن أراد إكمال السعي على أكمل وجه أن يكون سعيه عقب الطواف بأن يواليه دون تأخر، وأن يسعى على طهارة من الحدث الأكبر والأصغر، وأن يرقى على الصفا وعلى المروة -ولو قليلاً-، وأن يكون منشغلاً بالذكر والدعاء وتلاوة القرآن طَوَالَ سعيه.

وفقك الله، وجعلك من المقبولين.



(١) رواه مسلم.